



الوسائل الجالبة بإذن الله تعالى للتسليم والقلب السليم

إن أعظم منة يمن الله ﷻ بها على من يشاء من عباده منة استقرار الإيمان واليقين والتسليم لله ﷻ في القلب، حتى يكون القلب سليماً ممتلاً بما يحبه الله ﷻ ويرضاه. وصاحب هذا القلب هو صاحب النفس المطمئنة، التي تأتي ربها راضية مرضية، تنعم برضوان الله تعالى وجنته، نسأل الله ﷻ أن يمن علينا بفضله ورحمته بالقلب السليم والنفس المطمئنة.

وفي هذا الفصل سأذكر - بإذن الله تعالى - بعض الأسباب المعينة على تحلي العبد بالقلب السليم واستقرار التسليم لله ﷻ في قلبه، أسأل الله ﷻ أن ينفعني وإخواني المسلمين بها.

• أولاً: دعاء الله ﷻ واللجوء إليه والتضرع بين يديه وسؤاله القلب السليم..

وهذا السبب هو أعظم الأسباب ومفتاحها، لأن القلوب بيد الله ﷻ وهو سبحانه العليم الحكيم الهادي النصير الرحيم الودود، يوفق من يشاء بفضله ورحمته، ويخذل من يشاء بعدله وحكمته. وما

دام التوفيق والتسديد والهداية بيده سبحانه ولا يملكها غيره فلا جرم كان سؤال ذلك ممن يملكها وحده هو المتعين. والله سبحانه وتعالى لا يرد دعاء من دعاه بصدق ويقين وإرادة ورغبة ورهبة. ولذلك كثر في دعائه عليه الصلاة والسلام طلب صلاح القلب وسلامته وثباته على الحق واليقين، ومن ذلك:

قوله ﷺ: «اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم»^(١).

ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم اقسم لي من خشيتك ما تحول به بيني وبين معصيتك، ومن طاعتك ما تبلغني به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا»^(٢).

ومن الأدعية التي فيها سؤال الله ﷻ التسليم والإسلام لله ﷻ، ما ذكره الله ﷻ في كتابه عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في دعائهما:

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ

(١) النسائي (١٣٠٤) ترقيم أبي غدة. وقد سبق تخريج الحديث.

(٢) الترمذي (٣٥٠٢) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٢٧٨٣) والمعجم الكبير للطبراني (٧١٣٥).

عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿البقرة: ١٢٨﴾، إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١].

والمقصود أن الدعاء والإلحاح على الله ﷻ بطلب القلب السليم لمن أنفع الأسباب وأنجعها إذا صاحب ذلك صدق الطلب وصحة العزيمة.

• ثانيًا: التفكير في عظمة خلق الله ﷻ في الآفاق وفي الأنفس، التي تدل على عظمة الخالق ﷻ

يقول الله ﷻ: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن التأمل في عظمة هذا الكون الذي خلقه الله ﷻ، وفي خلق الإنسان العجيب، وما في ذلك من الدقة والنظام والقوة والقهر والحكمة واللطف والرحمة، ليدل ذلك على عظمة الله ﷻ وسعة علمه وحكمته ولطفه ورحمته وقوته وقدرته، وهذا كله يقود إلى امتلاء القلب من تعظيم الله ﷻ ومحبته وإجلاله والخوف منه والتوكل عليه وحده. وإذا امتلأ القلب بهذه الأعمال القلبية الشريفة تمكن التسليم التام لله ﷻ من القلب، وفاز العبد بالقلب السليم المخبت لله ﷻ. وهذا ما أثنى به الله ﷻ على أصفیائه من خلقه، وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾

[آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى عند هذه الآية:

«والقرآن يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكرراً مؤكداً إلى هذا الكتاب المفتوح؛ الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتبتدى في كل صفحة آية موحية، تستجيش في الفطرة السليمة إحساساً بالحق المستقر في صفحات هذا الكتاب، وفي تصميم هذا البناء، ورغبة في الاستجابة لخالق هذا الخلق، ومودعه هذا الحق، مع الحب له والخشية منه في ذات الأوان. وأولو الألباب؛ أولو الإدراك الصحيح يفتحون بصائرهم لاستقبال آيات الله الكونية، ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات. ويتوجهون إلى الله بقلوبهم قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه، وتدرك غاية وجوده، وعلة نشأته، وقوام فطرته بالإلهام الذي يصل بين القلب البشري ونواميس هذا الوجود»^(١).

وهذا ما انتهى إليه إبراهيم الخليل عليه السلام بعد نظره في ملكوت السموات والأرض، حيث أعلن لقومه ما ذكره الله ﷻ في كتابه عنه بقوله:

(١) في ظلال القرآن ١ / ٥٤٤.

﴿قَالَ يَنْقَوْمِرُ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ خَافِئًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿[الأنعام: ٧٨ - ٧٩].

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن جده قال: أتى
رسول الله ﷺ أعرابي، فقال: يا رسول الله جهدت الأنفس، وضاعت
العيال، ونُهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإننا
نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ
«ويحك! أتدري ما تقول» وسبح رسول الله ﷺ، فما زال يُسبح حتى
عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال «ويحك! إنه لا يُستشفع بالله
على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك. ويحك! أتدري ما الله؟
إن عرشه على سمواته هكذا». وقال بأصابعه مثل القبة عليه «وإنه
ليُط به أطيظ الرجل بالراكب»^(١).

• ثالثاً: التفكير والنظر في آلاء الله ﷻ ونعمه التي لا تحصى

قال الله ﷻ في سورة النعم: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

وقال في وسط السورة بعد أن عدد أنواعاً أخرى من نعمه
سبحانه على الإنسان في خلقته ومطعمه ومشربه ومسكنه وملبسه:

(١) أبو داود (٤٧٢٨) وسبق تخريجه.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئَةً إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرِيرًا تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيرًا تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨٠ - ٨١].

فذكر الله ﷻ في ختام هذه الآية أن من أسباب إسلام العباد لله ﷻ والتسليم له إتمام نعمة الله ﷻ على عباده وإسباغه عليهم نعمه الظاهرة والباطنة ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]. لذا فإن التفكير والتأمل في نعم الله ﷻ علينا التي لا تحصى لمن أسباب تحقق التسليم في القلوب له سبحانه والإخبارات والإذعان له، وهذا كله من ثمرة محبة المنعم ﷻ، حيث إنه لا منعم على الحقيقة ولا محسن إلا الله ﷻ، فينبغي أن يكون له الحب كله، وله التعظيم كله، وله التسليم كله، يقول الشيخ الشعراوي عن آية النحل السابقة، وهي قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: أي تلقون زمام الاستسلام إلى الله..، وأنت لا تلقي زمامك إلا لمن تثق فيه.. والإنسان قد يلقي

زمامه في أمر لا يُجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر، فإذا كنت في حاجات نفسك تلقى زمامك لمن هو مثلك، ويساويك في قلة المعلومات، ويساويك في قلة الحكمة، ومع ذلك تسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت، أفلا تلقى زمامك وتسلم أمرك إلى ربك وخالقك، وخالق كل هذه النعم من أجلك. إذن: جاء ذكر هذه النعم، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه، حتى نسلم عن يقين واقتناع، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة في طاعتنا، ولا تضره معصيتنا، إن أطعناه فلن نزيد في ملكه سبحانه، وإن عصيناه فلن ننقص من ملكه سبحانه.

إذن: تسليماً للأمر والزمam لله من مصلحتنا نحن.. فالإنسان حينما يسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تلوي رأيه في المسألة، إنما ربنا سبحانه حينما يوجه إلينا حكماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلَوّى، لا يكون إلا لصالحك، وبعد أن عدد هذه النعم في الذات والمحيطات وفي الإنسان وفي الانطباعات، قال: إياك بعد ذلك أن تسلم زمامك لغيري.. لذلك نقول: لا عبادة كالتسليم، لأن التسليم لحكمه تسليم لحكيم^(١).

(١) تفسير الشعراوي ١/ ٤٩٩٦ (باختصار).

• رابعاً: الفقه في أسماء الله الحسنى وآثارها والتعبد له سبحانه بها

إن الفقه في أسماء الله الحسنى وفهم معانيها والتعبد لله سبحانه بها، لتثمر في قلب العبد ثمرات وعبوديات عظيمة، ينعم بها في الدنيا والآخرة، أعظمها عبودية التسليم والرضى والإخبات والانقياد والخوف والرجاء، وتفويض الأمور إليه سبحانه والتوكل عليه وحده.

يقول العز ابن عبد السلام رحمة الله تعالى: «فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة والمحبة والتوكل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات»^(١).

ويقول الإمام ابن القيم رحمة الله تعالى: «فإن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه إذا أراد أن يكرم عبده بمعرفته وجمع قلبه على محبته، شرح صدره لقبول صفاته العلا، وتلقيها من مشكاة الوحي، فإذا ورد عليه شيء منها قابله بالقبول، وتلقاه بالرضا والتسليم، وأذعن له بالانقياد، فاستنار به قلبه، واتسع له صدره، وامتلاً به سروراً ومحبة، فعلم أنه تعريف من تعريفات الله تعالى، تعرف به إليه على لسان رسوله، فأُنزل تلك الصفة من قلبه منزلة الغذاء أعظم ما كان إليه فاقة، ومنزلة الشفاء أشد ما كان إليه حاجة، فاشتد بها فرحه، وعظم بها غناؤه، وقويت بها

(١) شجرة المعارف ص ١.

معرفته، واطمأنت إليه نفسه، وسكن إليها قلبه، فجال من المعرفة في ميادينها، وأسأم عين بصيرته في رياضها وبساتينها، لتيقنه بأن شرف العلم تابع لشرف معلومه، ولا معلوم أعظم وأجل ممن هذه صفته، وهو ذو الأسماء الحسنی، والصفات العلی، وأن شرفه أيضاً بحسب الحاجة إليه، وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة بارئها وفاطرها، ومحبتة وذكره، والابتهاج به، وطلب الوسيلة إليه، والزلفى عنده، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلم كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد. والله يُنزل العبد من نفسه حيث يُنزلُ العبدُ من نفسه»^(١).

فالعالم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته الحسنی يستدل بما علم من صفاته وأفعاله سبحانه على ما يفعله ويخبر به ويشرعه من الأحكام، لأنه سبحانه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته. وأفعاله دائرة بين العدل والفضل والحكمة، ولا يشرع ما يشرعه من الأحكام أو يقضيه من الأقضية إلا على حسب ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق، وأوامره ونواهيه عدل وحكمة ورحمة، وكل هذه المعارف تثمر في قلب العبد التسليم والرضا والحب لله ﷻ والخضوع له، وكم لهذه الآثار من سلامة للقلوب والأخلاق.

(١) شرح قصيدة ابن القيم الشافية الكافية ٢٤ / ١.

وكم في الجهل بها أو تعطيلها من آفات وأمراض للقلوب والأخلاق. يقول ابن القيم رحمة الله تعالى: «أي شيء عرف من لم يعرف الله ورسله، وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاتته العلم بالله والعمل بمرضاته ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وما له بعد الوصول إليه»^(١).

• خامساً: تدبر كتاب الله ﷻ والوقوف مع مواعظه

يقول الله ﷻ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

ويقول سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤]، ويقول ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَّا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧].

والمتدبر لكتاب الله ﷻ يجد فيه كل ما يحيي القلوب ويزيد الإيمان واليقين والتسليم لله ﷻ، وفيه الحديث عن آيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس الدالة على تعظيم الله ﷻ وقدرته وحكمته ورحمته. وفيه الحديث عن أسماء الله ﷻ الحسنى، وما تقتضيه من الخلق والأمر، وفيه الحديث عن آلاء الله ﷻ ونعمه، التي لا تحصى، وما يثمر ذلك من حمد الله ﷻ والثناء عليه والتسليم له. وفيه الحديث عن حقيقة الدنيا،

(١) هداية الحيارى ص ٥٩١.

والآخرة والحث على الزهد في الدنيا التي هي سبب قسوة القلوب وعدم انتفاعها بالمواعظ والزواج والوعد والوعيد. وفيه الحديث عن كثير من أحكام الله الشرعية الكاملة الشاملة التي كلها خير ومصلحة. وفيه قصص أنبيائه ورسله وأوليائه، وما تضمنته من التسليم الكامل من هؤلاء المصطفين لربهم ولأحكامه، كما قص علينا سبحانه جانباً من ذلك في قصة إبراهيم عليه السلام واستلامه لربه، وتقديم نفسه في سبيل الله ﷻ للنيران وولده للقربان.

وفيه من الحكم الباهرة في أخباره وأحكامه، وذلك كله يقود إلى مزيد من التسليم والإذعان والفرح بهداية الله ﷻ لهذا الدين وكتابه العزيز، قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَ تَكْمُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿[يونس: ٥٧ - ٥٨].

وعن تدبر القرآن ومجاري التفكير فيه وما يثمره في القلوب، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومجاري هذه الفكرة تدبر كلامه، وما تعرف به سبحانه إلى عبادته على ألسنة رسله من أسمائه وصفاته وأفعاله، وما نزه نفسه عنه مما لا ينبغي له ولا يليق به سبحانه، وتدبر أيامه وأفعاله في أوليائه وأعدائه التي قصها على عبادته، وأشهدهم إياها ليستدلوا بها على أنه إلههم الحق المبين، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ويستدلوا بها

على أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء عليم، وأنه شديد العقاب، وأنه غفور رحيم، وأنه العزيز الحكيم، وأنه الفعال لما يريد، وأنه الذي وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأن أفعاله كلها دائرة بين الحكمة والرحمة والعدل والمصلحة، لا يخرج شيء منها عن ذلك، وهذه الثمرة لا سبيل إلى تحصيلها إلا بتدبر كلامه والنظر إلى آثار أفعاله»^(١)..

• سادساً: العلم بالشرع والبصيرة في الدين

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]، ويقول عن أنبيائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]. ويقول سبحانه عن إبراهيم عليه السلام وهو يدعو أباه: ﴿يَتَّبِعْتَنِي فَإِنْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]، والآيات والأحاديث التي تبين أثر العلم في تبصرة القلب واستنارته واستسلامه لربه كثيرة في كتاب الله ﷻ، وفي سنة نبينا محمد ﷺ، ذلك أن العالم بربه سبحانه وبأسمائه وصفاته وأحكامه وأوامره، وما فيها من الحكم الباهرة والمصالح العظيمة، يكون في الغالب مخبئاً لربه، منقاداً خاضعاً مستسلماً له، ولأوامره وأحكامه سبحانه، أكثر من غيره ممن قلت بصيرته بربه

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ١٨٥، دار الكتب العلمية.

سبحانه وبدينه، حيث يكون إسلامه لربه ضعيفاً، كما أن تأثير الشبهات والشهوات على قلبه يكون كبيراً لقلّة علمه وبصيرته، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: «وأصل كل فتنة إنما هو تقديم الرأي على الشرع، والهووى على العقل. فالأول: أصل فتنة الشبهة، والثاني: أصل فتنة الشهوة، وفتنة الشبهات تدفع باليقين، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين، فقال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لِمَا صَبَرُوا وَكَانُوا ثَائِبِينَ يُوَفِّقُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. فدل على أنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين. وجمع بينهما أيضاً في قوله سبحانه: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٣]. فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات، وجمع بينهما في قوله سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدَى وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله. والأبصار: البصائر في أمر الله. وعبارات السلف تدور على ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما، أولى القوة في طاعة الله والمعرفة بالله.. وقال مجاهد: الأيدي: القوة في طاعة الله. والأبصار: البصر في الحق. وقد جاء في حديث مرسل: «إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويجب العقل الكامل عند حلول الشهوات»^(١). فبكمال

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير ٢/ ٤٧٠ وقال: تفرد به عمر بن حفص، وورد في مسند الشهاب ٢/ ١٥٢ تحقيق حمدي السلفي. مؤسسة الرسالة.

العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة، والله المستعان»^(١).

والحديث عن هذا السبب من أسباب استجلاب التسليم يقودنا إلى السبب السابع، وهو :

• سابعاً: مصاحبة أهل الإيوان واليقين والقراءة في سيرهم ومجانبة أهل الشبهات ومجالسهم وكتبهم، ومواقعهم

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيْءِ آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِيْ حَدِيثٍ غَيْرِهِ، وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

ويبين الرسول ﷺ أثر المجلس على مجالسه، فيقول: «إنما مثل المجلس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافع الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن يتاع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة،

(١) إغاثة اللفهان ٢/ ١٦٧، دار المعرفة، تحقيق: محمد حامد الفقي.

ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»^(١)، وقال أيضاً: «الرجل على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخال»^(٢).

وفي ضوء هذه الآيات والأحاديث يظهر لنا أثر الجليس من شخص أو كتاب على من يجالسه، ولذلك رأينا في منهج السلف الصالح تحذيرهم من مجالسة أهل الشبهات والأهواء والبدع، أو النظر في كتبهم التي يغلب عليها الشبهات وكثرة الاعتراضات والتأويلات للنصوص المحكمة، وهذا ينعكس على قارئه في قلبه من ضعف في التسليم واليقين، وشعور صاحبه بالحيرة والاضطراب. بينما لا يكون ذلك في مجالس أهل الإيمان والتسليم من الراسخين في العلم، وإنما يشعر الجالس في مجالسهم والقارئ لكتبهم وسيرهم بزيادة في التسليم والإيمان واليقين والانقياد. ولو أمعنا النظر في التحولات والتغيرات التي طرأت وتطراً على بعض الدعاة والمفكرين قد يصل بعضها إلى الإلحاد والاعتراض على أفعال الله ﷻ وأحكامه لرأينا أن أسباب كثيرة منها يعود إلى سماع أقوال أهل الشبهات أو القراءة في كتبهم، والدخول إلى مواقعهم.

يقول الأستاذ عبدالله السعوي في مقاله: (الغرور العقلي.. والانتكاس الفكري):

(١) البخاري (٥٥٣٤)، مسلم (٢٦٢٨).

(٢) الترمذي (٢٣٧٩) وقال: حديث حسن.

«لو ألقينا نظرة تأملية تبحث عن العوامل الفعّالة التي تقف خلف كثير من التحولات الفكرية الحادة عند بعض النماذج، والتي تنتقل من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار على نحو يستعصي معه الفهم والتحليل؛ لألفينا أنها لم تنبثق من فراغ بقدر ما هي أثر حتميٍّ أفرزته بواعث متنوعة، بينها تسلسل سببي، وروابط عليّة متبادلة ومتفاعلة، أسجّل باعثين هنا منها على سبيل الإجمال، مقتصدًا جهد الطاقة، حتى لا أثقل على ذاكرة القارئ الكريم:

أولاً: القراءة المكثفة في كتب أهل الأهواء مع ضالة العلم الشرعي في منحاه العقدي خاصة:

إن الفضول المعرفي بطبيعته يدفع إلى مزيد من النهم القرائي اللامنضبط - أحياناً - مما يدفع بالفرد إلى قراءة كل ما يقع في متناول يديه من أطروحات فكرية قراءةً غير موجهة بحكم عدم استنادها إلى قدرات علمية عليا، ولذا فهي تولد الاتجاه السلبي أكثر مما تعزز التوجه السلفي كإفراز حتميٍّ ناشئ عن ضمور مكتسبه المعرفي في جانبه العقدي على وجه الخصوص.

إن إثارة الشبهات والتشكيك في العقائد والإطاحة بالتصورات الإيجابية، هو الهدف المحوري الذي تتغيّاه كتب ومقالات أهل

الأهواء، الشأن الذي جعل رسول الله ﷺ يتمرّ وجهه عندما شاهد صحيفة من صحف أهل الكتاب مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو الفاروق المبشّر بالجنة، ونهاه عن قراءتها.

ولقد كان سلفنا الأفاضل يحرّمون علم الكلام، ويشدّدون في عدم السماع من أهل الأهواء أو النظر في مؤلفاتهم، حتى ولو احتوت على شيء من الحق؛ لأن هذه الأطروحات تورّث شُبهاً تضلّل المتلقّي وتستهويه وتؤثّر على قناعاته...

إن القارئ المتسطح الذي يعاني من الهزال في بنيته المعرفية يتعسّر عليه - إن لم يتعذّر - أن يقرأ بروح تمحيصية ناقدة، فهو لا يملك القدرة على سبر أغوار الروح العامة، وتفكيك البنية الشاملة التي ينهض عليها هذا الخطاب، ولذا يقع فريسة سهلة للأفكار السالبة بكافة ضروبها، ويسيطر عليه ما يشبه عمى الألوان، فيتجاوب مع المادة المطروحة، ويتذوّقها، وتنطبع لديه في أعماق الضمير...

إن الإمام بالعلم الشرعي والتشبع بالفقه العقدي وفق منهج سلفي مطلبٌ جوهرى في غاية الأهمية والإلحاح، مطلبٌ يمنح صاحبه حصانة فكرية، ويزوّده بمناعة نفسية، ويورّثه عزّة وقناعة تامة بصوابية توّجه، ويمدّه بحيوية ذهنية وقدرة فذة على القراءة النقدية، التي تضعه أمام الحقيقة الموضوعية لهذه الأفكار الوضعية، التي تغدّي أخيلة مستهلكيها بالمفاهيم الكاسدة والمتشابكة مع أسسنا الفكرية لسلمنا القيمي المستوحى من نصوص الوحيين...

ثانيًا: المبالغة في إيراد الأسئلة والاستفهامات على العقل وتحميله ما لا يحتمل بجعله الإطار المرجعي الأول بعيدًا عن النص:

... إن ثقافة التساؤل من حيث المبدأ هي ثقافة ينبغي تفعيلها وإشاعتها، ولكن ثمة ملحظ يجب استحضاره في هذا السياق، مؤداه أن الأسئلة تتباين باعتبار طبيعتها الماهية، فثمة أسئلة لها عوائد إيجابية، وثمة استفهامات لها مردودها المكتظ بالسلبية، كما هو الحال في الاستفسارات ذات النزعة الفلسفية المتمحورة حول ذات الخالق ﷻ وأسمائه وصفاته وأفعاله.

إن ثمة أمورًا يجب أن يقف عندها العقل موقف التسليم والخضوع، أشير إلى جزء منها على نحو مجمل كما يلي:

- أولًا: القدر، فهو سرّ الله في خلقه، والرب - تبارك وتعالى - يعلم الأصلح للخلق، الذين لم يتعبّدوا بالبحث عنه، وإنما تعبّدوا بالرضى الوجداني، والتسليم المطلق، والامتثال اللامشروط، ولقد كان سلفنا الأوائل نموذجًا مثاليًا يجدر الاحتذاء به في هذا الشأن، وكانت مواقفهم حازمة إزاء من يتهادى في إثارة الأسئلة والإشكالات في القدر

- ثانيًا: الغيبات عمومًا، سواء منها ما يتعلق بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله بكيفياتها، أو ما يتعلق بأخبار الغيب الأخرى كأحوال

الآخرة أو عالم الشهادة الذي ليس بمقدور مداركنا تناوله، فهذا كله يجب الكف عنه، وتجنّب البحث في تفاصيله.

- ثالثاً: بعض حِكم التشريع؛ لأن حِكم التشريع متباينة، فثمة جملة منها قد يُدرك من قِبَل عامة الناس، وجزء آخر قد لا يدركه إلا العلماء، وهناك جزء يختص الخالق - جلّ وعلا - بمعرفته، وهو سرٌّ من أسرارهِ الخفية المغيبة عن البشر.

إن الإفراط في طرح المزيد من التساؤلات سلوك له إفرازاته السلبية؛ لأن للسؤال قدرة هائلة على التشعب والتكاثر والسير في كل اتجاه، فالسؤال السابق يفضي إلى السؤال اللاحق، الذي بدوره يستدعي إجابة تكتظ بمواطن الأسئلة اللامتناهية، وهكذا تتواصل الأسئلة على نحو توالدي، يعيي العقل ويرفعه إلى مشارف الهاوية، فتتنازعه مشاعر متناقضة، تعصف به وتحيطه بدائرة من الكآبة المقلقة والتوترات النفسية المرشحة للتفاقم والاستفحال^(١).

• ثامناً: النظر في آثار التسليم لله ﷻ وثمارها الطيبة في الدنيا والآخرة. سبق في الفصل السابق ذكر بعض الثمار اليانعة لسلامة القلب وتسليمه، التي كان من أبرزها الحياة الطيبة الهنيئة في الدنيا والآخرة،

(١) انظر المقال في مجلة البيان العدد (٢٢٩) مع الاختصار الشديد.

والسلامة من القلق والاكتئاب والحيرة والاضطراب والرضى بقدر الله ﷻ، والسلامة مما يكون عند كثير من الناس من الحسد والأحقاد والتقاطع والتدابير ومن هذه الثمرات الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة بالأعمال الصالحة، وإن التمعن في هذه الثمار لمن أقوى الوسائل التي تدفع المسلم إلى بذل ما في وسعه من الجهد والأخذ بالأسباب السابقة وغيرها، للحصول على هذه الثمار الطيبة والأرباح المباركة، نسأله سبحانه أن يمن علينا بالقلوب السليمة المطمئنة، وأن يمن علينا بتهيئة الأسباب الموصلة إلى ذلك، إنه سميع مجيب منان وهاب واسع عليم.



الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه وهدايته يهتدي المهتدون، يهب برحمته وفضله وعلمه وحكمته القلب السليم لمن يشاء من عباده، ويحرمه من يشاء من عباده بعدله وحكمته، وبعد: أود في هذه الخاتمة أن أقف مع أهم ما ورد في هذا الكتاب، وذلك حسب الوقفات التالية:

الوقفة الأولى:

ذكر ما تضمنته المقدمة من بعض الدوافع التي تبين منها أهمية الكتابة في موضوع التسليم لله ﷻ والإسلام له، ولا سيما في واقعنا المعاصر الذي كثرت فيه الشبهات والشهوات، وكثرت فيه الاعتراضات على دين الله ﷻ، وانتشر الجهل بحقيقة الإسلام، وأظهر فيه المنافقون قرونها، وتجروا على شريعة الله ﷻ وحملتها بالاستهزاء والطعن والإقصاء، وما حصل عند ضعاف الإيمان من الاستهانة بنصوص الوحيين، وضعف تعظيمهما في النفوس.

الوقف الثانية:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الأول من الآيات من كتاب الله ﷻ، التي ورد فيها ذكر الإسلام والقلب السليم، والتسليم، والمسلمون، وذلك بسرد هذه الآيات سرداً مجرداً دون تعليق، إلا في آيتين منها هما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨ - ٨٩]، حيث ذكرت أقوال بعض المفسرين في هاتين الآيتين، وقد بينت هذه الأقوال حقيقة التسليم، وصفات القلب السليم، وأركان التسليم لله ﷻ، كما تضمن هذا الفصل ذكر بعض الأحاديث والآثار عن التسليم وأهله.

الوقف الثالثة:

وفيها ما تضمنه الفصل الثاني من بيان معنى الإسلام والاستسلام لله ﷻ، وبيان أن الإسلام هو دين الرسل جميعاً، دعوا إليه، وبلغوه أقوامهم.

الوقف الرابعة:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الثالث من بيان مفصل لأركان التسليم لله ﷻ، التي لا يتم التسليم إلا بها، ولا يستحق العبد وصف القلب السليم إلا بها، وهي في الجملة:

- تسليم القلب لأخبار الله ﷻ بالتصديق واليقين، فلا يعترض عليها بشبهة من عقل أو رأي.
- وتسليم القلب لأحكام الله ﷻ بالقبول والإذعان، فلا يعترض عليها بشهوة أو شبهة.
- وتسليم القصد والإرادة لله ﷻ، فيسلم القلب من أي إرادة تعارض الإخلاص لله ﷻ.
- وتسليم القلب لقضاء الله ﷻ وقدره، حيث يتلقاه بالرضى والطمأنينة. ولا يؤثر على ذلك مدافعة أقدار الله ﷻ بأقداره سبحانه، وذلك فيما يمكن مدافعته منها. وقد تضمن هذا الفصل مناقشة ورد شبهات أهل الزيغ في اعتراضهم على دين الله ﷻ بعقولهم وأهوائهم الفاسدة.

الوقفه الخامسة:

وفيهما ذكر ما تضمنه الفصل الرابع من بعض الثمار والآثار الطيبة، التي يثمرها التسليم لله ﷻ في قلب العبد المؤمن وأحواله وواقعه، وكان من أهمها: الإخلاص لله ﷻ والرضا بقضائه، والحياة الطيبة السعيدة التي يحصل عليها العبد المستسلم لربه ﷻ في حياته الدنيا وفي الآخرة، وتلذذه بعبادة ربه وسلامته بذلك، مما يعترى أصحاب القلوب المريضة وأهل الاعتراضات من الحسد والحيرة والتسخط،

والاضطراب والقلق والاكتئاب.. وهذا يثمر الاغتراب والسرور بدين الله ﷺ في قلب المسلم، ومنها النشاط للدعوة لدين الله ﷻ، والجهاد في سبيله، والتضحية في سبيل ذلك بالأموال والأنفس، ومنها ما يسود المجتمع المستسلم لشرع الله ﷻ من الأمن والسلام والوئام، ومنها سلامة الموازين وانضباطها، فلا تضطرب أو تتناقض، كما هو الحال في موازين البشر الجاهلة الظلمة، كما قال ﷺ: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ومنها كثرة ذكر الله ﷻ والتضرع إليه وتفويض الأمور إليه، ومنها الزهد في الدنيا وأنها متاع زائل، وأن ما عند الله خير وأبقى، ومنها الانقياد للحق والتسليم له إذا بان دليله.

الوقفه السادسة:

وفيها ذكر ما تضمنه الفصل الخامس من بعض الوسائل التي تستجلب بها سلامة القلب وصحة إسلامه لله ﷻ، وكان من أهمها: دعاء الله ﷻ وسؤاله سبحانه بصدق سلامة القلب، ومنها: العيش مع الصالحين أصحاب القلوب السليمة وقراءة سيرهم وكتبهم واجتناب مجالس المبطلين وأهل الزيغ والشبهات واجتناب كتبهم ومواقعهم.

ومنها: الفقه في أسماء الله ﷻ والتعبد لله سبحانه بها. ومنها النظر في آيات الله ﷻ في الآفاق والأنفس، التي تدل على عظمة الله ﷻ وقدرته

وحكمته ورحمته. ومنها النظر في آلاء الله ﷻ ونعمه التي لا تعد ولا تحصى، قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]، ومنها تدبر القرآن وما يتضمنه من الوسائل السابقة وذكر سير المسلمين لله حقاً من أنبيائه وأوليائه، ومنها العلم بالشرعية والبصيرة في الدين، التي توقف التأمل فيها على عظمة هذه الشريعة وكما لها وحسنها وحكمة منزلها.

وفي ختام هذه الخاتمة أوجه هذه النصيحة لكل من ظلم نفسه، وتجراً على نصوص الوحيين بالاعتراض والتحريف وعدم التسليم، لأقول له ما قاله نوح عليه السلام لقومه عندما عارضوه وكذبوه: ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ [نوح: ١٣]، وأقول لهم، ما قاله الرسول ﷺ لذلك الأعرابي الذي سأله أن يستسقي لهم فقال: إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله ﷺ «ويحك! أتدري ما تقول» وسبح رسول الله ﷺ فما زال يُسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟! إن عرشه على سمواته هكذا».

فيا قوم: اتقوا الله ﷻ ولا تظلموا أنفسكم، فإنكم لا تضرون الله ﷻ ولا تضرون إلا أنفسكم، أتدرون ما الله، وما هي صفاته

وعظمته، كيف تطاوعكم أنفسكم أن تتعاملوا مع نصوص الوحيين كما تتعاملون مع كلام البشر، ويحكم أئدرون على من تعترضون؟! إنكم لتعترضون على فاطر السموات والأرض، القاهر فوق عباده ﴿مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]. ويحكم كيف تعترضون على خالقكم ورازقكم ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨]. ويحكم توبوا إلى الله ﷻ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝۸۹ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۝﴾ [مريم: ٩٠]، ولا تغتروا بإمهال الله لكم وحلمه عنكم، فإن الله ﷻ يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

قال الله ﷻ: ﴿وَأْمُرِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [القلم: ٤٥]، وقال سبحانه ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

هذه نصيحتي إليكم إن كنتم تحبون الناصحين.

تم الكتاب والحمد لله رب العالمين

في يوم الخميس ٥/١١/١٤٣٦ هـ

